أفلا يتدبرون القرآن ؟

الشيخ : الغزالي خليل عيد
الاستاذ في كلية أصول الدين

الحمد لله ، والصلاة والسلام على نبينا محمد رسول الله (وبعد) فقد قال تعالى في سورة (محمد ـ صلى الله عليه وسلم) :

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (سورة محمد ـ ٢٤) .

ومعنى هذا أن من لم يتدبر القرآن الكريم ، وينظر في عواقبه ونتائجه ، وما يعود به على البشرية : أفرادها وجماعاتها ، ويتعرف لأي شيء يدعو ؟ وما السبيل الذي سلكه في دعوته ؟ من لم يتدبره ـ يكون مغلق القلب غير منشرح الصدر للاسلام ، ويكون ممن : (١)

خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ

وقال تعالى في سورة النساء :

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا (سورة النساء ـ ٨٢) .

وبحثنا حول هذه الآية الكريمة يقتضينا أن ننظر في الأمور الآتية : ـ

الأمر الأول :

سياق الآية وسباقها ، أو ما سبقها وما تلاها من الآيات والأوامر والنواهي .

(١) (سورة البقرة ـ ٧) .

الأمر الثاني :

تحليل ألفاظ الآية : (أفلا يتدبرون القرآن) وتفسير كلماتها ، وبيان معنى التدبر ، وبأي شيء يكون تدبر القرآن الكريم ؟٠

الأمر الثالث :

فحص القرآن وتدبره من ناحية الموضوعات التي تناولها ، ثم من ناحية المسلك الذي سلكه والأسلوب الذي سار عليه ، والخصائص والمميزات التي امتاز بها عما عداه من الكتب ٠

الأمر الرابع :

بيان معنى الاختلاف وتقسيمه الى :

أ) اختلاف لابد منه ، ولكنه لا أثر له في تنقيص موضع الاختلاف ولا الحط من قدره ٠

ب) اختلاف يفضي الى التعارض والتناقض والتضارب ، والتفاوت والاضطراب الذي يحط من قدر الكلام ويضع من شأنه ٠

الأمر الخامس :

هل في القرآن اختلاف من هذا النوع المتناقض في الموضوعات التي دعا اليها ؟ أو في اسلوبه ومسلكه الذي سلكه ؟ أو في خصائصه ومميزاته التي امتاز بها ؟؟

الأمر السادس :

بيان أن القرآن كتاب قيم غير ذي عوج ، ولا خلل ولا اضطراب :

كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ

(سورة هود ـ ١)

الأمر السابع :

بيان ما تدعو اليه الآية الكريمة وتحتمه على المسلمين ٠

الأمر الثامن :

بيان موقف المؤمنين ، وموقف المنـافقين من دعوة الآيـة الكريمة ، والسلوك الذي أخذ به كل من الفريقين :

أ) المؤمنين ٠ ب) المنافقين ٠

واليك نظرة موجزة مستأنية الى كل أمر من هذه الأمور :ـ

الأمر الأول : (سياق الآية وسباقها)

ان القارىء الواعي اذا تأمل فيما سبق الآية الكريمة من آيات ، وفيما تلاها يتجلى له أن الله ـ سبحانه وتعالى :ـ

١) قد أمر جماعة المؤمنين أن يطيعوا الله ، وأن يطيعوا الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ، وأن يطيعوا ولاة الأمر من المسلمين، وهم فريقان :ـ

أ ـ العلماء الذين يستنبطون حكم الله تعالى من كتابه جل وعلا ، ومن سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ـ استنباطاً صحيحاً غير مائل للهوى ، ولا جانح عن الحق ، ولا مجانف لروح الشريعة الاسلامية ٠

ب ـ الولاة والحكام والقادة والرعـاة الذين يحكموننـا بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ـ ولعل القارىء علىوعي وتفهم ويقظة لقوله :

وَأُولِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ (سورة النساء ـ ٥٩) ٠

فان هذا القيد (منكم) يفيد أن طاعة هذا الفريق من الولاة انما تكون بشرط أن يكونوا من المسلمين ٠

هذا فضلا عما سيأتي من بيان : أن تكون طاعتهم في غير معصية الله ورسوله ، والا فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ٠

ثم أمرهم أن يرجعوا عند التنازع الى الله ورسوله

ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (النساء ـ ٥٩) ٠

٢) ثم بين موقف المنافقين من الاحتكام الى الله والرسول ، وايثارهم الاحتكام الى الطاغوت ، وتبريرهم ذلك بالمعاذير الكاذبة ، والمفتريات التي تخفيها قلوبهم ، وتفضحها تصرفاتهم :

أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ (النساء ـ ٦٣) ٠

٣) ثم أقسم بنفسه ـ تعالى ـ أنهم لن يكونوا مؤمنين حتى تتوفر فيهم أمور أربعة :ـ

الأول : أن يحكّموا الرسول صلى الله عليه وسلم في قضاياهم كلها ، لأن (ما) من صيغ العموم (فيما شجر بينهم) ٠

الثاني : ألا يجدوا في أنفسهم ضيقاً ولا امتعاضاً من حكمه وقضائه سواء أكان لهم القضاء أم كان عليهم ٠

الثالث : أن يسلموا بذلك وينقادوا له عن طواعية ورضا ، وطمأنينة نفس ، وانشراح صدر ٠

الرابع : أن يكون تسليمهم تسليما أكيدا سليما لا مصطنعا ولا مفتعلا :

فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (النساء ـ ٦٥) ٠

٤) ثم بين للناس فضل من يطيع الله ورسوله ، وأن طاعة الله وطاعة الرسول واحدة ، لأن الرسول مبلغ عن الله

وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم (النساء ـ ٢٩) ٠

٥) ثم حذرهم من الغفلة عن العدو ، ومن الانخداع بظواهر المنافقين (خذوا حذركم ٠٠٠٠٠) الخ الآيات ٠

٦) ثم دعاهم الى الجهاد في سبيل الله ، واستنقاذ المستضعفين الذين تسلط عليهم الكفار ، ويدخل في عموم هؤلاء القلة المؤمنة التي وقعت تحت حكم الاستعمار الكافر ، وأذنابه الذين لا تأخذهم بالمؤمنين رأفة ، ولا يكفون عن التعسف معهم ، واستذلالهم ، والطغيان في حكمهم ارضاء لاهوائهم الباطلة ، ولشياطينهم المتمردين ، ولسادتهم من الكفار والمستعمرين ٠

٧ ـ ثم ساق الآية الكريمة :

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (النساء ـ ٨٢) ٠

متضمنة أمرين اثنين :ـ

الأمر الأول :

دعوة أكيدة الى تدبر القرآن وتفحصه والنظر فيعواقب ما جاء به ، وتعرف ما تضمنه ودعا اليه ، والطريق الذي سلكه ، والنتائج التي تترتب على فهمه ودرسه ، وتطبيق تعاليمه وتنفيذ تشريعاته وأحكامه ، على أفراد الأمة وجماعة المؤمنين ·

الأمر الثاني :

استطلاع ما فيه ، والتأكد من أنه خال من الاضطراب والتناقض والاختلال ، والتفاوت الذي لو وجد فيه لكان دليلا على أنه من عند غير الله ·

٨) ثم ساق سبحانه وتعالى من بعد تلك الآية آيةً أخرى تحذر الناس من الأراجيف والاشاعات وافشاء ما يضر افشاؤه بمصلحة المسلمين في الحرب أو في السلم ـ وتوجب الرجوع في ذلك الى الرسول صلى الله عليه وسلم في حياته والرجوع للكتاب والسنة بعد وفاته ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا (النساء ـ ٨٣) ·

وبعد أن ألمنا المامة موجزة بما أحاط بالآية الكريمة من سياق وسباق ، نرانا في حاجة الى تحليل ألفاظ الآية الكريمة ، تحليلا لغويا ، وفهمها على ضوء ذلك التحليل وما ورد حولها من آثار ، وهذا هو البحث الثاني : ـ أو الأمر الثاني :

الأمر الثاني : (تحليل كلمات الآية الكريمة وتفسيرها لغويا)

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ

الهمزة : للاستفهام الانكاري التقريعي ، وهي داخلة على محذوف يفهم من المقام ، ومن وجود الفاء التي عطفت عليه ، والمعنى : أيعرض هؤلاء الناس فلا يتدبرون القرآن ؟

وأصل التدبر : النظر في أدبار الأمور ، وعواقبها ، ونتائجها التي تترتب عليها من خير أو شر ٠

وتدبر القرآن : التأمل فيه ، وتفهمه ، وفحصه ، ودرسه ، وتعرف ما تؤول اليه العاقبة من حفظه وفهمه ، وتفسيره ، وتنفيذ أحكامه ، والتزام عقائده ، وتطبيق تشريعاته الشخصية والجماعية ، والأخذ بآدابه وأخلاقه ، وتأكد ما فيه من تناسق واتساق ومن ائتلاف وعدم اختلاف ، ومن صحة في المعاني ، وقوة في المباني ، ومن نصاعة في الأسلوب ، وبلوغ لأعلى قمم البلاغة التي لا تدانيها بلاغة البشر ٠

والقرآن : معروف ، وهو ذلك الكتاب الذي نزل على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ منجما في مدة ثلاث وعشرين سنة ، والذي تحدى به الانس والجن أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله ، أو بسورة من مثله ـ فما استطاع ـ ولن يستطيع أحد ذلك ٠ وما زال منذ أربعة عشر قرناً ، ولن يزال الى أن تقوم الساعة واقفاً وقفة الطود الشامخ ، والعلم الراسخ يقول :

قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (الاسراء ـ ٨٨) ٠

وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا

و (لو) حرف شرط غير عامل اعراباً ـ ويقولون : انه حرف امتناع لامتناع ، فشرطها ممتنع لأن جوابها ممتنع ، ولو تحقق جوابها لتحقق شرطها ٠

فالقرآن الكريم ممتنع أن يكون من عند غير الله (لا من عند محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا من عند غيره) ، لأنه ممتنع أن يكون فيه اختلاف ، بتناقض أو تفاوت ، أو خلل ، أو اضطراب ٠٠٠

ولو تحقق فيه شيء من ذلك لكان من عند غير الله تعالى ٠

ولأجل أن نتحقق (ونحن والحمد لله متحققون من ذلك كل التحقق ومؤمنون به) ـ من أنه خال من هذا النوع من الاختلاف ، يجب أن ننتقل الى الأمر الثالث ، وهو فحص القرآن من ناحية الموضوعات التي تناولها ودعا اليها ، ثم من ناحية الأسلوب والمسلك الذي سلكه في دعوته ، والخصائص التي تميز بها ٠

الأمر الثالث : (الموضوعات التي تناولها القرآ الكريم) ٠٠ الخ

القرآن الكريم كتاب هداية عامة للناس كل الناس ، لا للعرب فقط ، ولا للبقعة التي نزل فيها ، ولا للزمن الذي نزل فيه فحسب ، انه كتاب يطاول الزمان منذ أربعة عشر قرنا ، وسيبقى كذلك يقرر أنه :

قُرْءَانٌ مُّبِينٌ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا (سورة ياسين ٦٩ ـ ٧٠) ٠

و (مَنْ) هنا من صيغ العموم يتناول عقلاء الانس والجن ،

هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ (من سورة ابراهيم ـ ٥٢) ٠

لكل الناس من عرب ومن عجم ، بل للعالم كله

لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (سورة الفرقان ـ ١) ٠

إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ (سورة الاسراء ـ ٩) ٠

نعم يهدي للتي هي أقوم في (العقيدة) الموحدة الناصعة التي لا انحراف فيها ولا زيغ عن سبيل الحق ، والتي جاء بها الأنبياء والمرسلون من لدن آدم الى أن ختمت الرسالة بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ٠

ويهدي للتي هي أقوم في (العبادة) التي خلق الانس والجن من أجلها فهي طاعة واذعان ومحبة لمن ليس له نظير ويهدي للتي هي أقوم في (تعامل) الناس بعضهم مع بعض تعاملا لا غش فيه ولا غرر ولا عدوان على مال أو عرض أو نسب أو دم ٠

ويهدي للتي هي أقوم من (الآداب والأخلاق) الفردية والاجتماعية ، فلا كذب ولا بغي ولا أثرة ولا عدوان ٠

ويهدي للتي هي أقوم في بيان (العلائق) التي تربط المرء بمن حوله في حياته وبعد مماته من زواج وطلاق ، وعدد ، وميراث ، ووصايا ، وولاية يتيم ، ورعاية سفيه أو ضعيف ٠

ويهدي للتي هي أقوم من (قصص) صادق مملوء بالعبر والزواجر ، والمواعظ والنذر ٠

وسوف ترى أنه مع تشعب نواحيه وموضوعاته الكثيرة التي تدور في فلك الهداية ـ لا عوج فيه ولا خلل ، ولا تناقض ولا اضطراب ـ ٠

ولك أن تتساءل : أليس كبقية الكتب الأخرى في أسلوبه العربي ، ومسلكه الذي سار عليه في دعوته ؟

ولنا أن نقول لك هذا هو : ـ

(بيان المسلك والأسلوب والخصائص المميزة للقرآن الكريم)

نعم · انه كتاب عربي : بلسان عربي ، وأسلوب عربي ، لكنك حينما تطالعه ، وتقرؤه ، وتتفرس فيه ، وتتدبر أسلوبه وخصائصه ، ومعانيه ، وتقارن بين ذلك وبين أساليب العرب التي يتكلمون بها ـ تراه فذا بينها ، فريدا في أسلوبه ، ممتازا في خصائصه ، وكأني بك تردد قول القائل :

فان تفق الأنام وأنت منهم فان المسك بعض دم الغزال

واليك ما يوفق الله له من البيان :ـ

ان الناظر في لغة العرب وأساليبها يراها لا تخرج عن واحد من تلك الأساليب الخمسة ، في مسلكها الذي تسلكه في البيان والتعبير ، فهل سلك القرآن واحداً من تلك المسالك أو سار على أسلوب من هذه الاساليب ؟؟ كلا ـ بل ـ جاء نسيج وحده ، لا يطاوله أسلوب ، ولا يشاركه في خصائصه ومميزاته كتاب ، ذلك لأن الاسلوب العربي اما أن يكون : (شعراً ، أو سجعاً ، أو خطابة ، أو رسالة ، أو نثرا مرسلا) :ـ

أ) فالشعر : هو المنظوم الموزون المقفى الذي كثيرا ما يتضمن ضروبا من التصوير والخيال الرائع الذي قد يوجد في غيره من الأساليب ، ولكنه فيه أكثر ، وكثيرا ما يكون كاذبا مبالغا مغرقا ، ولذلك يقولون : « ان أعذبه أكذبه » وهذا لا يمنع أن يكون صادقا في كثير من الأحيان ·

إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ

(سورة الشعراء ـ ٢٢٧) ·

فهل ـ ترى يا أخي القارىء ـ ان أسلوب القرآن العربي ـ من هذا الوادي المنظوم الموزون المقفى الذي يسبح في بحر من الخيال والتصوير الكاذب ؟؟

أظنك معي في أنه ليس من الشعر ولا الشعر منه :

وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ (سورة الحاقة ـ ٤١) ٠

وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا

(سورة ياسين ـ ٦٩) ٠

ب) والنثر المسجع : تختم كل جملة منه بنغم خاص ناشيء عن حرف خاص مضبوط على صورة من الشكل خاصة ، والمهم أن هذا الأسلوب الساجع لا يهتم أولا وبالذات الا بالايقاع الموسيقي ولو أدى ذلك الى خلل في المعنى ، أو كذب في العبارة ، أو فراغ من الفائدة والدلالة ، فهو كهدير الحمام الذي يسمى (سجعا) ، والذي أخذ منه هذا الاسم ، وكان هذا النوع من الأسلوب شائعا في الجاهلية عند الكهان وسدنة الأصنام يستهوون به الناس ، ويستميلون به عواطف السذج والأغرار ، ثم صار عند كثير من الناس محسنا لفظيا ، يزينون به صورة الكلام صارفين أنظارهم عن المحسنات المعنوية سالكين في ذلك مسلك المعاناة والتكلف ٠

وأحيانا يأتي عفو الخاطر بلا تكلف ولا تعسف ولا اخلال بالمعنى أو جمال الاسلوب واللفظ والتعبير ، وهذا ما يسميه الناس (السجع الخالي عن التكلف) ، وهو نوع من السجع محمود ٠

فهل ترى ـ يا أخي القارىء ـ أن القرآن أو أن في القرآن من هذا السجع ؟؟ .

أكبر ظني أنك ستكون واحدا من اثنين : ـ

أ) اما رجلا متعصبا لكتابك ، مبالغا في تعصبك ، فتبادر لأول وهلة ، وبلا تريث ولا روية ، وتقول : (لا) : ليس في القرآن من سجع قط ، كما أنه ليس بشعر قط .

ب) واما رجلا نهزة تتربص بالقرآن وأهله الدوائر ، وتتلمس الثغرات والمعايب ، فتبادر مسارعا وتقول (نعم) : ان في القرآن كثيراً من السجع ، ثم تتجاوز حدك وتقول : والسجع أخو الشعر ، وهو اسلوب السدنة والكهان ، ثم تنطلق وراء شيطانك ـ وكأنكما ظفرتما بما لم يظفر به أحد قبلكما فتقولا :

« وان كنت في شك من هذا فاقرأ سورة (القمر كلها) ، وسورة (الكوثر كلها) ، وسورة (الناس كلها) ، واقرأ القسم الأكبر من أول سورة (مريم) ، ومن سورة (طه) ، ومن سورة (الرحمن) ، ومن سورة (المزمل) و (المدثر) و(البروج)و(الأعلى) و(الشمس وضحاها) و(الليل اذا يغشى) و (الضحى) و (القدر) و (الزلزلة) و (العصر) و (الهمزة) ... الخ » .

أليس في ذلك كله سجع تريد أن تنفيه عن القرآن وتقول ان أسلوبه ليس بسجع كما أنه ليس بشعر ؟ وهنا أحب أن أقف بينكما حكما منصفا ـ ولا ـ والله لن أحيد الى أي الجانبين ، وانما هو الصراط المستقيم الذي أسأل الله أن يهديني ويهديكما للاعتصام به ،

مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ (سورة الكهف ـ ١٧) .

وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ

(سورة آل عمران ـ ١٠١) .

يا أخويّ : ان القرآن كتاب مفصل ، أحكمت آياتــه ثم فصلت ، فتراه آيات : كل آية لها أول ولها آخر ٠ وآخر الآية يسمى رأس الآية ٠

وترى من آياته ما تحتوي على فواصل متعددة ، وعندما تتم جملة مفيدة يحسن السكوت عليها ـ تكون الفاصلة ، والفواصل أنواع ، فمنها ما يشبه السجع ، ومنها ما لا يشبهه : ـ

١) فالمطرف : وهو الذي تختلف فيه الفاصلتان في الوزن ، وتتفقان في الطرفين أي في الحرفين الأخيرين ، مثل :

مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا

(سورة نوح ـ ١٣ ، ١٤) ٠

٢) والمتوازي : وهو الذي تكون فيه الكلمتان الأخيرتان من الفاصلتين متفقتين في الوزن وفي الحروف الأخيرة ، وليس بين الجملتين مقابلة ، نحو

فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ (سورة الغاشية ـ ١٣ ، ١٤)

٣) والمرصع : وهو الذي تتفق فيه الفاصلتان في الوزن وفي الحروف الأخيرة ، مع التقابل بين الجملتين نحو

إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم (سورة الغاشية ـ ٢٥ ، ٢٦)

هذه الأنواع الثلاثة (المطرف ، والمتوازي ، والمرصع) تشبه السجع ٠

أما ٤) المتوازن : وهو الذي تتوازن فيه الجملتان دون أن تتفقا في الحروف الأخيرة منهما نحو :

وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (سورة الغاشية ـ ١٥ ، ١٦) ٠

و ٥) المتماثل : وهو الذي تتفق فيه أو تتماثل فيه الفاصلتان في وزنهما ، وتختلفان في الحروف الأخيرة منهما مع التقابل بين أفراد الفاصلة الأولى وأفراد الفاصلة الثانية نحو

وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ

(سورة الصافات ـ ١١٧ ، ١١٨) ٠

فهذان النوعان (المتوازن ، والمتماثل) ليس بينهما وبين السجع شبه ٠

والمهم : أيها الاخوان : أن ما جاء في القرآن الكريم لا يشبه السجع كالمتوازن والمتماثل ، فنحن فيه متفقون فلا يسمى سجعا ٠

وأما ما جاء على صورة السجع (كالمطرف ، والمتوازي ، والمرصع) فنحن فيه متفقون في أمر ، ومتناقشون في أمر آخر : ـ

أ) نحن متفقون في أنه (على صورة السجع)،ومتفقون على أنه لا تكلف فيه ، ولا تعسف ، ولا كذب ، ولا تنميق للفظ على حساب المعنى ، بل المعنى أولا وبالذات ، واللفظ ان جاء على صورة السجع فتحسين للفظ يزيد الكلام جمالا من غير تحيف على ناحية أخرى من نواحيه ، أو حط من قدره ومكانته البلاغية ٠

ب) أما الأمر الذي نتناقش فيه : فهو هل يسمى ذلك سجعا ، أو لا يسمى سجعا ؟؟ ٠

هنا انقسم العلماء الى فريقين :

١) فالفريق الاول : وهم قلة منهم الرماني ، والخفاجي ، وابن النفيس ، وما نقله صاحب عروس الأفراح عن القاضي الباقلاني ـ قالوا : وماذا يضيرنا أن نسميه سجعا ؟ ما دام فيه محاسن السجع التي جاءت عفوا ، ولم تَشُبْهُ نقيصة" من نقائص السجع كالتكلف والكذب والاخلال بالمعنى ، وما الى ذلك مما كان في سجع الكهان والجاهلية ٠٠؟؟

٢) والفريق الثاني : وهم أكثر العلماء يقولون : انه لا يجوز أن يسمى ما في القرآن سجعا لعدة اعتبارات شرعية :

أ) منها : أن كلمة السجع كانت تطلق على سجع الكهان والسدنة ، وهم كما تعرفون في الكذب والاستهواء ومراعاة الايقاع والجرس الموسيقي أحرص منهم على صدق المعنى ، وعدم التكلف والتعسف والاستهواء ، فليس من اللائق أن نطلق هذا اللفظ الموهم ـ ولو من بعيد ـ على كتاب الله الكريم ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ٠

ب) ومنها : أن كلمة السجع في الأصل ـ اسم لصوت الحمام وهديره ـ وهو صوت حيوان أعجم لا يجوز أن نصف به القرآن العربي الذي لم يطعن في عربيته ولا في بيانه أحد من ألد خصومه وأعدائه ٠

جـ) ومنها : اننا اذا قلنا (ان في القرآن سجعا خاليا من التكلف والتعسف ، والكذب والاخلال بالمعنى ٠٠) الخ لا نأمن أن يجيء مِنْ بعدنا مَنْ يقول : (ان في القرآن سجعا) ، ويسكت على ذلك ويترك تلك الصفات التي تجعل السجع الذي في القرآن سجعا محسنا ، ولا ضير فيه ولا اخلال ٠

وبذلك نكون قد فتحنا للفتنة بابا ما أغنانا عنه ، ومهدنا للذريعة مسلكا لا داعي له ـ ومعروف أن سد الذرائع مقدم على جلب المصالح ، وأن من حام حول الحمى يوشك أن يواقعه ٠

هذا وأراني بعد الحديث عن تنزيه القرآن الكريم عن الشعر ، وعن السجع المرذول لتكلفه أو لتعسفه ، أو لكذبه أو لنسبته للكهان والسدنة ، أو لاخلاله بالمعنى أو لكونه

لغوا لا فائدة فيه ، أو لايهامه أن القرآن يشبه هدير الحمام ـ يجب أن أرجع بكم الى الكلام على بقية الأساليب العربية لنرى أن القرآن العربي قد فـاق تلك الأساليب كلهـا ، وامتاز عنها جميعا ، وكان كالشمس في عليائها ، أو كالبدر الوضاء بين نجوم السماء ـ فقد يكون الاسلوب العربي ليس بشعر موزون مقفى ، ولا بنثر مسجوع مهزج ، ولكنه يكون:

جـ) أسلوبا خطابيا يعتمد على الاقناع بمقدمات ظنية مشهورة مسلمة عند السامعين ، ولو لم تفد الجزم واليقين ، ويساعد على الاقناع شخصية الخطيب ، والموقف الذي يقفه ، ويتكلم فيه ، ومهما طالت الخطبة فقلما تتعدى صحيفة أو صحفا معدودة ـ ان تسامحنا ـ وعندما تتأمل في الخطبة تراهـا لا تخلو من الاستشهاد بكلام آخرين ، أو من تكرار أو شبه تكرار ، وترى الاقناع فيها مبنيـا على اثارة العواطف ، واجاشة التحمس والحمية ٠

أفتَرى القرآن الكريم يقوم على ذلك الاسلوب الخطابي؟ المبني على المقدمات الظنيـة أو المشهورة ، التي لا تعطي اليقين ؟٠

لقد أبدأ المفسرون وأعادوا ، ودرسوا القرآن وتعمقوا ـ فما وجدوا فيه شيئا من أساطير الأولين ، ولا مقدمة تعتمد بالأصالة على استهواء السامعين ، أو على قوة الخطيب وشخصه وبيانه ٠

ومن قبلُ تَفَحّصَ الكفارُ ، وعصروا عقولهم ، وأذهانهم عسى أن يجـدوا فيه ثغرة ينفذون منهـا الى مقتله ـ فما هو الا أن قالوا بعد أن عبس زعيمهم وبسر ،

ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ

(سورة المدثر ـ ٢٢ ، ٢٤) ٠

ولم يقل : أنه خطب مبنية على المقدمات الظنية أو المشهورة الخالية عن الدليل القاطع والحجة الدامغة ، كما لم يقل : أنه سجع كهان ، ولا شعر من وحي الشيطان ·

اذاً فليس أسلوب القرآن باسلوب الخطابة ـ كما أنه ليس بشعر ولا بسجع على ما قدمنا ·

د) ان للعرب أسلوبا رابعا هو أسلوب الرسائل المدبجة ، التي تسطرها اليراعات الساحرة ، ببلاغتها وتجويد أسلوبها ، فتحفظ للخلف عن السلف ، وهذا الأسلوب لم يكن شائعا بكثرة عند العرب ، لأنهم قوم مفطورون على الحفظ في الصدر ، لا على التدوين في الصحيفة والسطر ، ولا تكاد ترى لهم الا رسائل معدودة في صحف محدودة ، أما هذا القرآن الكريم ـ فسجله الأصيل هو صدر النبي صلى الله عليه وسلم ـ الذي تلقاه عن وحي الله الأمين ، ثم صدور صحابته الكرام الأبرار الذين تلقوه منه مشافهة ومتواترين ·

أفيجوز أن نقول : انه مجموعة من الرسائل المدبجة ، أو انه أسلوب رسائل نمقتها أقلام الكاتبين ؟؟

أقصى ما قال أعداؤه الكفار هنا ـ بعد اللتيا والتي ، كلمتان تافهتان ، ومع ذلك صفعهما القرآن بالحجة والبرهان : ـ

الكلمة الأولى : (انما يعلمه بشر) فصفعهم البرهان الحسي قائلا :

لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ

(سورة النحل ١٠٣) ·

فأفحموا ولم يستطع واحد منهم أن يقول انه ليس بعربي مبين ٠

والكلمة الثانية :

وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا

(سورة الفرقان ـ ٦) ٠

فرد الله عليهم :

قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

(سورة الفرقان ـ ٥) ٠

فمن لأساطير الأولين ، وخرافات السابقين بهذه المعلومات الغيبية التي أوحى بها من يعلم السر في السموات والأرض ؟ والتي تتحدث عن الماضي حديث الصدق الذي لا كذب فيه ولا افتراء ، وتتكلم عن المستور حاليا حديثا تكشف عن صدقه ودقته أحداث الأيام والليالي ٠ ثم تتحدث عن المغيبات المستقبلة حديثا صحيحا صادقا منزها عن كل كذب ومين وافتراء

تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ

(سورة هود ـ ٤٩)

أخي القارىء الكريم : لعلي ولعلك متفقان الى الآن على أن أسلوب القرآن ليس بشعر ، ولا بسجع على ما بينا ، وليس باسلوب الخطباء الذين يقفون عند حد الاقناع الظني، والحماس الملتهب ، ولا هو باسلوب الرسائل التي تدبجها يراعات الكتاب ، ويسجلها الأولون للآخرين ٠

ولم يبق أمامنا من أساليب العرب الا أسلوب واحد وهو الأسلوب الخامس :

هـ) الأسلوب النثري المطلق عن كل قيد ، فلا يقيده نظم ولا وزن ولا قافية ، ولا يقف في سبيل اطلاقه سجع كاهن أو كاذب أو منمق للفظ هادر للمعنى ، ولا تدبيج كاتب نحرير ، ولا خطيب مفوه متحمس ٠

أفيكون قرآننا العزيز من هذا الوادي المرسل المطلق عن كل قيد ؟؟٠

يا أخي : تأمل معي ــ أو تدبر كما تطالبنا آيتنا التي نحن بصددها :

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ

واقرأ مرتلا ، أو استمع منصتا متأملا ، وابتدىء على مكث وتمهل وتريث

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ

(سورة الفاتحة ــ ١) ٠

واستمر حتى تفرغ من الاستعاذة برب الناس :

مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤
ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦

(سورة الناس ــ ٢ ، ٦) ٠

ثم قل لى ــ بربك ــ هل رأيته حديثا مرسلا على الاطلاق ، لا تحده فاصلة ، ولا تنتهي عباراته برؤوس آي ؟؟٠

ان كل سورة من سوره تشتمل على آيات ذات رءوس ، وفواصل معدودة ، لا تكاد تصل في أطول سورة الى عشرة رءوس ، أو حروف ــ فهذه سورة الكوثر مثلا كل رءوس آياتها على حرف الراء ٠ وهذه سورة البقرة أطول سورة من سوره لا تخرج رءوس آياتها عن سبعة أحرف مجموعة في قولك (قم لندبر) ٠

ان هذا لعجب أي عجب ، أقرآن عربي يعلو أسلوبه على كل أسلوب عربي ؟ أم انه كتاب أعجمي جاء على لسان رجل عربي ؟ كلا ، وبملء الفم ألف مرة كلا !!

لقد صرح القرآن آكثر من مرة بعبارة لا تحتمل التأويل بأنه (قرآن عربي) ـ ففي سورة يوسف يقول :

إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (سورة يوسف ـ ٢) ٠

وفي سورة الزخرف يقول :

إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (سورة الزخرف ـ ٣) ٠

وفي سورة الزمر يقول :

قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (سورة الزمر ـ ٢٨) ٠

ومع هذه التصريحات الواضحة ـ ما سمعنا عربيا قط يقول : انه ليس بعربي ٠ كل ما كان منهم حينما تحيط بهم الحجج ، ويضيق عليهم خناق الالزام أن يقولوا : (سحر مبين) وربما انفلتت أعصاب أحدهم ، وانبهر بعروبة القرآن وبلاغته ، وسموه فوق كل كلام عربي ، ونسي عناده وجحوده وكراهيته للقرآن ولحامل القرآن ـ فخر ساجدا ، وصرعه سلطان الحق ، وانطلق يقول : (والله ان له لحلاوة ، وان عليه لطلاوة ، وان أعلاه لمثمر ، وان أسفله لمغدق ، وانه يعلو ولا يعلى عليه ، والله ما يقول هذا بشر) ، ثم اذا أفاق واسترجع نفرته وحميته وعصبيته قال :

إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝٢٤ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ

(سورة المدثر ـ ٢٤ ، ٢٥) ٠

« ثم تدبر الخصائص والمزايا بعد الأسلوب »

أخي : أرى الحديث طال ـ لكنه حديث محبب مستطاب ـ لأنه حديث عن أحب الأحباب ، وأحب الأحاديث الى القلب والنفس ـ الحديث عن الحبيب ـ جعلني الله واياك من أحبابه وأحباب رسوله وكتابه ·

والآن وبعد التدبر في موضوعاته واسلوبه ـ يجيء دور الحديث عن التدبر في مزاياه وخصائصه التي امتاز بها عن كل كتاب سواه ـ ·

ان لهذا القرآن الكريم خصائص ومزايا تفوق العد ، وتربو على الحد ، وكلما تدبرت فيه تجلى لك من المزايا والخصائص جديد وجديد ، لذلك أرى أن أجعل الحديث عن هذه الخصائص والمزايا كرءوسٍ لأبحاث ، ومفاتيح لموضوعات ـ كل موضوع منها يصلح أن يكون بحثا مستفيضا ، ودراسة واسعة عميقة ، على أنني لن أستوعب الخصائص كلها ولا جُلّها ، وسأقتصر على ثلاث منها ···

أولى تلك الخصائص : أنه كتاب ميسر ، كما قال الله فيه :

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ (سورة القمر ـ ١٧) ·

واليك مظاهر تيسيره :ـ

أ) فهو ميسر الحفظ : ولا أدل على ذلك من أنك ترى الصبي الذي لا يتجاوز العاشرة من عمره يحفظه سورة سورة ، وآية آية ، وكلمة كلمة عن ظهر قلب ـ فهل ترى كتاباً في هذا الحجم ، وقد حورب من الأعداء هذه الحرب الضروس التي لا تعرف اللين ولا الهوادة ـ قد حظي بهذه الظاهرة · قل لي بربك كم من الناس يحفظون التوراة والانجيل ؟ أو (الالياذه والأودسا) أو المعلقات السبع أو العشر ؟؟

ب) وهو ميسر التواتر : فمنذ نزل على قلب محمد صلى الله عليه وسلم ـ تلقاه الصحابة البررة تلقيا شفويا ، ونقش في صدورهم نقشا لا تمحوه الأيام ولا الليالي ـ ثم انتقل من جيل لجيل هكذا في أعداد لا يمكن تواطؤهم على الكذب ، ولا ينقطع سندهم ، ولا يعضل ، ولا يتسرب الشك الى دقة النقل وصدقه ، وهذه ـ أيضا ـ خاصة لم تتوفر لكتاب ، بل لم تتوفر لأمة غير أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) فها هم أولاء (اليهود) ليس عندهم خبر متواتر يصلون به الى موسى ـ عليه السلام ـ بل ان أقصى ما يرتفع سندهم الى أن يكون بينهم وبين موسى نحو ثلاثين جيلا ٠

وها هم أولاء (النصارى) ليس عندهم من المتواتر سوى مسألة (تحريم الطلاق) ٠

أما نحن المسلمين ـ فلله الحمد والفضل والمنة ـ ما زلنا ، ولن نزال ان شاء الله نتلقاه متواترين بسند متصل الى أن يرث الله الأرض ومن عليها ـ وصدق الله العظيم :

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ

(سورة الحجر ـ ٩) ٠

ج) وهو ميسر الفهم : فانك لا تسمعه أو تقرؤه ، وأنت فاهم للسان العربي الذي نزل به الا فهمت منه قدرا يتفاوت بقدر ما أوتيت من صفاء نفس ، وسعة ثقافة ، ووفرة اطلاع ـ ولن تجد انسانا يفهم العربية يقرؤه أو يسمعه بتدبر الا كان له من فهمه حظ ونصيب ـ وذلك بفضل الله

ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ

(سورة الجمعة ـ ٤) ٠

د) وهو ميسر للذكر وللعبادة ـ ولم لا ؟ وهو أفضل ما يتقرب به الى الله تعالى بعد الفرائض ، ولا تجد لهذا الذكر مشقة ولا عناء ـ بل متعة ولذة وعبادة ·

هـ) وهو ميسر لرفعة الشأن ونباهة الذكر ، ولعلك ترى رأي العين أن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما ويخفض به آخرين · وقارن بين حافظه وفاهمه ودارسه والعامل به وبين غير هؤلاء ·

و) وهو ميسر لحفظ اللسان العربي : فلقد مر على لغة العرب بضعة عشر قرنا تتناوشها الأحداث وهجمات الأعادي من الداخل والخارج ، وهي صامدة صمود الطود الشامخ بفضل هذا الكتاب العزيز ـ تنادي بأعلى صوتها :ـ

أنا البحر في أحشائه الدر كامن
فهل سألوا الغواص عن صدفاتي ؟

ز) وأخيرا ـ وليس آخرا ـ هو ميسر التطبيق والتنفيذ ، والعمل بمضمونه ـ فمن فضل الله تعالى أن لم يجعل علينا في الدين من حرج :

يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ (سورة البقرة ـ ١٨٥) ·

ولذلك لم تر شاكيا ولا متضجرا ، يشكو قسوته أو شدته وعسرته ـ يوم كان المسلمون يسيرون على هديه ، ويستضيئون بنوره ، ويترسمون تعاليمه وخطاه ·

وثانية تلك الخصائص : أنه حينما يقرأ كما نزل ، وكما تلقيناه بالسند المتواتر المتصل عن النبي صلى الله عليه وسلم ـ يكون له ايقاع عجيب ، ووزن دقيق ـ جل أن نقول فيه انه كميزان الذهب ـ وليس ذلك موكولا لتنغيم القارىء أو هواه ـ

انما هي قواعد دقيقة تُظْهر من الحروف ما يجب أن يَظْهر ، وتدغم منها ما يجب أن يُدغَم ، وتقلب منها أو تَغُنّ ما يجب أن يقلب أو يغن ـ وهكذا ترقق وتفخم ، وتقصر وتمد ، بميزان وقواعد مضبوطة بكل معاني الدقة والضبط ـ ذلك لأنه كما قال ابن الجزري رحمه الله :

والأخذ بالتجويد حتم لازم من لم يجود القرآن آثم
لأنه به الاله أنزلا وهكذا منه الينا وصلا

وثالثة هذه الخصائص : اعجازه ، ولن أتكلم كثيرا في هذه الخاصة ـ فقد كتبت فيها الأسفار ، وألف فيها العلماء والمفكرون ما فيه الغنية والكفاية ـ وأصبح الكلام فيها أشبه بكلام من يريد أن يقيم الدليل على أن السماء فوقنا والأرض تحتنا ·

ولهذا سأعمد الى الخاصة التي تناولتها آيتنا الكريمة صراحة وهي أنه خال من الاختلاف والاضطراب والتناقض ـ وهذا هو :ـ

الأمر الرابع : (بيان معنى الاختلاف وأقسامه)

الاختلاف بين الشيئين أو الكلامين معناه ألا يكونا متماثلين من كل الوجوه ـ وذلك صادق بألا يكون بينهما وجه شبه مطلقا ، أو بينهما شبه من بعض الوجوه ، واختلاف من بعض آخر · ولذلك ترى الاختلاف بين الكلام نوعين :ـ

الأول : اختلاف لا أثر له في تنقيص قيمة الكلام أو الحط من قدره ، لأنه لا يتضمن تناقضا ولا تضاربا ولا اضطرابا ولا اختلالا ولا تفاوتا ولا نقصا ـ وذلك كاختلاف السور في طولها ، وقصرها ، وفي عدد آياتها ، وفي حروف فواصلها ، وفي مكيتها أو مدنيتها ، وفي قصر آياتها أو طولها ، وفي نزولها دفعة واحدة أو تنجيمها ـ ونحو ذلك ·

وهذا الاختلاف يوجد في القرآن الكريم ، ولكنه ـ يدل على براعته في تصريف القول ، وعلى تفننه في وجوه التعبير ، وعلى استيعابه للموضوعات التي تناولها ، وعلى استقرائه للأغـراض والمقاصد والحكم ، والأحكام ... وهذا الاختلاف تستطيع أن تصفه بأنه ليس اختلافا كثيرا ، وليس يدل على أنه من عند غير الله ـ وانصافا للقول ـ كذلك لا يدل دلالة قاطعة على أنه من عند الله ـ اللهم الا اذا نظرنا الى أن هذا الكتاب المحدود الحجم في كتابته ولفظه قد أحصى كل ما يحتاج اليه البشر لاسعادهم في الدنيا والدين :

مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ (سورة الأنعام ـ ٣٨) .

النوع الثـاني : من الاختـلاف . اختـلاف بالتنـاقض ، والاضطراب ، والتفاوت في درجـة البلاغة ، وفي اخبـاره عن المغيبات بأن يصدق في بعضها ويكذب في بعض آخر ، وفي أصول العقائد التي دعا اليها بأن يكلف الناس بعقيدة مثلا ثم يأتي عليها بالنقض ويكلفهم بضدها ، وفي القصص التي يسوقهـا للعبرة والعظة بأن يأتي بأحداث القصة ، ثم يأتي في القصة نفسها بأحداث تناقض ما جاء فيها في مكان آخر ؟

هذا النوع من الاختلاف المتعارض المتناقض ـ هو الـذي يحط من قدر الكلام ، ولو وجد في القرآن لكان ذلك دليلا كافيا على أنه من عند غير الله ـ كما قال سبحانه ـ :

وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا

وهنا أجدني متسائلا منساقا الى :

الأمر الخامس : (هل في القرآن اختلاف من هذا النوع المتناقض في مقاصده التي دعا اليها ؟ أو في مسلكه وخصائصه التي سار عليها ؟)

الحق أنك لو قرأت القرآن من أوله لآخره لما وجدت فيه أي خلل أو تفاوت أو تناقض بين المقاصد التي تناولها ، ولا بين الخصائص والمميزات التي سار عليها · ولذلك كانت سلامته من هذا الاختلاف أحد الأوجه الثلاثة التي تدل على أن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم صادق ، وأن هذا الكتاب من عند الله ، فقد ذكر الرازي أن العلماء قالوا :

« ان دلالة القرآن على صدق محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من ثلاثة أوجه :

أ) فصاحته · ب) اشتماله على أخبار الغيوب · جـ) سلامته عن الاختلاف » آ · هـ كلام الرازي نقلا عن المنار ص ٢٩٠ جـ ٥

أ) أما فصاحة القرآن وبلاغته ، وتبوؤه أعلى القمة في هذا الباب لدرجة أعجزت الانس والجن عن معارضته ـ فهذه مسألة قد فرغ منها ، وكتب فيها العلماء تحت عنوان « اعجاز القرآن » ما فيه الكفاية لمن أراد أن يصل الى الحق ليؤمن به ·

ب) وأما اخباره بالمغيبات ـ ففيه الكثير من الأخبار المغيبة التي اتضح صدقها اتضاح الشمس في رائعة النهار ·

جـ) وأما سلامته من الاختلاف المتعارض المتناقض ، وسلامته من الخلل والتفاوت ، والعيب والنقص ـ فتلك هي مسألتنا التي تقول الآية فيها :

وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا

ان أشد الناس عبقرية ونبوغا اذا ألف كتابا في موضوع محدود ، ودرسه درسا عميقا قبل أن يعلنه للناس أو للعلماء ثم قدمه وأقرته أعلى الجماعات كعبا في العلم والمعرفة ، وأوسعها باعا في البحث والدرس والاطلاع ، وأخذ به أعلى شهادات العلم بدرجة الشرف والامتياز ، وكل ما هنالك من ألقاب ـ اذا هو عاود النظر الى ذلك الكتاب سيرى نفسه في حاجة أن ينقحه ويهذبه ، وأن يحذف منه ويضيف اليه ، وأن يطيل في موضع ويوجز في آخر ... وهكذا ، ثم اذا أراد أن يعيد طبعه ونشره كرر العملية مرات ومرات ، مع أنه كتبه في موضوع محدود وسجله في زمن متتابع متقارب .

أما هذا الكتاب الكريم ـ الذي مكث ينزل نجوماً في نيف وعشرين عاما ولم يطبع في مطبعة ، ولم يسجل في كتاب وقت نزوله ، وانما سجل في صدر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما وعده ربه بقوله :

إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ (سورة القيامة ـ ١٨) .

وفي صدور الصحابة الأبرار بطريق شفوي مباشر متواتر ، وكان يعرضه على أمين الوحي في كل سنة مرة ، حتى جاءت سنة وفاته ـ صلى الله عليه وسلم ـ فعرضه مرتين ، وكان النجم منه ينزل في وقت فيأمر بوضعه في جوار النجم الذي قد يكون نزل من زمن بعيد حسبما يأمره الوحي عن ربه .

وكل ما كان يسجله الصحابة كتابةً ـ كان في رقاع وأكتاف، وسعف نخل وما اليها مساعدة على العامل الأساسي لحفظه ، وهو التسجيل الصدري ـ متقيدين في ذلك بقول نبيهم ـ صلى الله عليه وسلم :

(لا يكتب أحد عني شيئا غير القرآن ـ فمن كتب عني شيئاً غير القرآن فليمحه) .

وذلك امعانا في المحافظة عليه أن يدخل فيه شيء غريب عنه أو ليس منه ، كما أمعنوا في حفظه كلمة كلمة ، وحرفا حرفا ، ممدودا أو مقصورا ، أو مخففا أو مشددا ، أو مظهرا أو مدغما ، أو مرققا أو مفخما ، موزونا بميزان ليس كمثله ميزان في الضبط ـ وبهذين الأمرين ـ أصبح محفوظا من الزيادة ومحفوظا من النقص ، ومحفوظا مما بين ذلك من تحريف أو تبديل أو تصحيف أو تزييف ، وجل الله الذي وعد بذلك فقال :

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (سورة الحجر ـ ٩) ٠

هذا الكتاب المحاط بهذه الظروف كلها يتلى آلاف المرات ، ومن آلاف مؤلفة من القراء ، ويدرس دراسة تحليلية عميقة من طوائف العلماء الذين تخصصوا في دراسة العقائد ، أو القوانين الاجتماعية ، أو الأحكام الفقهيـة ، أو الآداب والأخلاق ، أو الدراسات العربية ، أو غير ذلك كله ، وتراهم مع هذا لا يجدون تفاوتا ولا عيبا ، ولا تناقضا ولا اضطرابا ـ لماذا ؟ لأنه تنزيل من العزيز الحكيم

وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا

(أدق أوصافه)

ان أدق أوصافه ، وأصدق ما ينعت به هو ما وصفه به ربه ومنزله ٠٠

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ۜ قَيِّمًا
(سورة الكهف ـ ١) ٠

كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ
(سورة هود ـ ١) ٠

وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ (سورة فصلت ـ ٤٢) ٠

بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ (سورة البروج ـ ٢١ ، ٢٢)

ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (سورة البقرة ـ ٢) ٠

هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ

(سورة آل عمران ـ ١٣٨) ٠

٠٠ الخ ما جاء في القرآن من صفاته وأسمائه التي تقرب من مائة اسم وصفة فضلا عما جاء في السنة الصحيحة ٠

(وبعد) (فالام تدعونا الآية الكريمة التي نحن بصددها) ؟؟

(وهذا هو الأمر السابع) :

والآية التي نحن بصددها والبحث حولها ـ آية من مئات الآيات جاءت لتدعو الناس الى أمرين :ـ

١) تدبر القرآن وتفهمه ، واعمال الفكر والعقل في العواقب التي يصير اليها مَنْ حفظه وفهمه ودرسه ونفذ تعاليمه ، وطبق أحكامه ، واتخذه دستوراً لحياته ، ووسيلة لسعادته في الدين والدنيا ٠

٢) اكتشاف براءته من كل نقص وعيب وتفاوت واضطراب ٠

وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا

ولعلنا من هذا ندرك أن تدبر القرآن محتوم على كل مسلم بقدر طاقته وأن العملَ به في كل النواحي التي دعا اليها ، والرجوعَ اليه عند التنازع أو التحاكم أو التقاضي فريضة مفروضة ٠

فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ (سورة المزمل ـ ٢٠) ٠

كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ

(سورة ص ـ ٢٩) ٠

(الأمر الثامن) :

(موقف المؤمنين وموقف المنافقين من هذا الكتاب)

أ) أما المؤمنون فيتجلى موقفهم من تلك الصفات التي وصفهم بها ربهم :

وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا

(سورة الأنفال ـ ٢) ٠

تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ (سورة الزمر ـ ٢٣) ٠

فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ

(سورة التوبة ـ ١٢٤)

إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

(سورة النور ـ ٥١) ٠

ب) وأما المنافقون فلهم نحو هذا القرآن وما تضمنه من حكم وأحكام ـ مواقف مخزية ، يطول الحديث في سردها وان شئت أن تعرف الكثير منها فاقرأ السورة الفاضحة للمنافقين سورة التوبة وأمثالها ـ ولنكتف بعرض صورة واحدة من مواقفهم ، وانما اخترت هذه الصورة بالذات لأمرين :ـ

الأول : أنها مرتبطة ارتباطا مباشرا بالآية الكريمة التي يدور بحثنا في ضيائها ٠

الثاني : أننا في هذه الأيام التي يقولون انها أيام العلم والنور ، والمدنية ـ نرى بيننا طوائف ليست بالقليلة من طراز هؤلاء المنافقين الذين ينفرون من الاحتكام الى الله ورسوله ، والرجوع الى الكتاب والسنة في حياتنا وعلائقنا ، وقضائنا ـ وتراهم يعلنون تلك النفرة حينما يصفو لهم الجو أو يتسع لهم صدر وسائل الاعلام ، ويعملون في الظلام ، ويطعنون دينهم وأمتهم ووطنهم الاسلامي من الخلف وفي الخفاء ، اذا تيقظ المسلمون وأخذوا حذرهم كما أمرهم الله ٠
هؤلاء يمثلون الصورة التي حصلت ابّان نزول هذه الآيات الكريمة وسجلها القرآن لتكون تذكرة للناس على مر الدهور وعبرة ٠

يقول تعالى في سياق تلك الآية الكريمة ، وما تقدمها من آيات :

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ

(سورة النساء ـ ٦٠) ٠

كذلك هؤلاء يريدون ان جهارا ، وان مخاتلة ومخادعة ـ ويشرعون أقلامهم ، وعقائرهم أن يتحاكموا الى الطاغوت ، والى غير ما أنزل الله من أحكام وضعها لهم الناس من أعدائهم أو غير أعدائهم • فمثلهم كمثل ذلك المنافق المسمى (بِشْراً) حينما تخاصم مع يهودي في أمـر من الأمور ، فترافعا الى الرسـول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليحكم بينهما ، فحكم بالحق لليهودي على المنافق ، تنفيذاً لقول الله وأمره •

وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ (سورة المائدة ـ ٨) •

كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا ۚ وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا

(سورة النساء ـ ١٣٥) •

حكم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لليهودي وعداوة اليهود للنبى معروفة :

* لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا

(سورة المائدة ٨٢) •

وكان حكمه على المنافق الذي ينتسب الى دين الاسلام ، ويقول بلسانـه اذا جـاء للـرسول صلى الله عليـه وسلم : أشهد أنك لرسول الله ـ

وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (سورة المنافقين ـ ١) •

فرفض (بشر) المنافق حكم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وطلب الى خصمه اليهودي أن يتحاكما الى أحد الطواغيت ، وهو (كعب بن الأشرف) أحد زعماء اليهود يوم ذاك ·

وبينما هما يسيران قابلهما الفاروق عمر (رضي الله عنه) فذكرا له ذلك ، فاستوثق من (بشر) وقال له أهكذا ؟ قال : نعم · فاحكم بيننا ـ فاستوقفهما عمر ليحكم بينهما ـ ثم دخل بيته واستل سيفه وخرج عامدا الى عنق بشر المنافق فضربه وقال : هذا حكمي لمن لم يرض بحكم الله ورسوله ·

أواضح أيها المنافقون ؟؟

وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ

(سورة المائدة ـ ٤٤) ·

وبعد : فما أحرانا جماعة المسلمين ، بل جماعة البشر أن نتدبر هذا القرآن الكريم وأن نفتح له قلوبنا كما فتحناها لغيره أحقاً من الزمن ، وأن نمعن النظر في عاقبة الأخذ والاستمساك بهديه والسير على منهجه الرشيد ·

ان ذلك لهو الطريق الوحيد لاستنقاذ البشرية والسمو بها الى سلام في الدنيا وسعادة ، والى ظفر في العاقبة بالحسنى وزيادة ·

نسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن يتدبرون القرآن حق التدبر ، وأن يكشف لنا عما فيه من خير وهداية ورشد ، وأن يجعل هوانا تبعا لما جاء به كتابه ورسوله ـ وأن يجعلنا من الذين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم قالوا سمعنا وأطعنا ـ ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضى الله ورسوله ويسلموا تسليما ·

وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم باحسان والحمد لله رب العالمين ·